الفصل التاسع عشر

العباسيون

٢٣٢ — ٤٥٤ ﻫ ٨٤٧ — ١٠٦٣ م

من عهد المتوكل إلى القائم

المتوكل أو نيرون العرب — انحلال الإمبراطورية العربية — المنتصر — المستعين — المعتز — ثورة الزنوج — المعتضد — الدولة الفاطمية — القرامطة — المكتفى — استرداد مصر — السامانيون — المقتدر — القاهر — الراضى — المتقى — آل بويه — رجال البلاط — المستكفى — الغزنيون — المطيع — الطائع — القادر — القائم — السلجوقيون — طغرلبك

أبو الفضل جعفر المتوكل على الله ٢٣٢–٢٤٧ﻫ ٨٤٧–٨٦١ م

ولما توفى « الواثق » أراد معظم كبار الدولة ومن بينهم القاضى الأكبر والوزير أن يبايعوا ابنه ، غير أن « وصيفاً » القائد التركى اعترض على ذلك بقوله إن القلنسوة والدراعة والصولجان لا يقوى على حملها جسم الطفل الصغير ، ولهذا استقر رأيهم على مبايعة جعفر أخى الواثق الملقب « بالمتوكل على الله » ، وإن كان يستحق أن يسمى « بنيرون العرب » . وكانت مدة خلافته خمس عشرة سنة ، وفى عهده بدأ انحلال الإمبراطورية العربية وتسرب الفساد فى جسم الدولة ، بينما كان هو غارقا فى لهوه مستسلماً لشهواته عاكفا على معاقرة الخمر . ولكنه كان برغم ذلك من العاملين على إعادة المذهب التقليدى ، فأصدر أمره بترك المباحثات والمناظرات ، وأمر الناس بالتمسك بالتقليد ؛ كما أقصى أحرار الفكر عن وظائف الدولة ، وعطل المحاضرات التى كانت تلقى فى العلم والفلسفة . ولا مشاحة أن غلواءه هذا أدى به إلى أن يزج القاضى « أبا دؤاد » وولده اللذين كانا من

أشهر رجال المعتزلة — فى السجن ويصادر أملاكهما . ويقال إنه لم يكتف باضطهاد أحرار الفكر فحسب ، بل أوغل أيضا فى اضطهاد الذميين الذين قاسوا فى خلال حكمه أشد ضروب الجور والإيذاء ، إذ أقصاهم عن وظائف الدولة وحرمهم جميع الامتيازات التى كانوا يتمتعون بها فى عهد أسلافه . وبلغ به كرهه لعلى بن أبى طالب وآل بيته أن هدم قبر الحسين بكربلاء وأمر بزرعه وسقيه ، كما منع الناس من زيارته مهدداً كل من يخالف أمره بأقصى أنواع العقوبات ، كذلك صادر أرض « فدك » وأمر بقتل ابن الزيات[1] وزير الواثق بحجة أنه لم يحترمه الاحترام الكافى قبل أن يعتلى كرسى الخلافة .

وقد انتهز الروم فرصة انتشار هذه الفوضى فى أنحاء الإمبراطورية واستأنفوا حروبهم ، فأغاروا على دمياط من أعمال مصر وفتكوا بأهلها وحرقوا دورهم ، ثم غزوا كليكيا وأسروا منها ٢٠٫٠٠٠ وذبحوا ١٢٫٠٠٠ بعد أن مثلوا بهم شر تمثيل بأمر الإمبراطورة « ثيودورة » ، ولم ينج من هذا الاعتداء المروع إلا من اعتنق المسيحية .

وفاة المتوكل

ولما بلغت تصرفات « المتوكل » فى أواخر أيامه حداً لا يطاق تآمر عليه القواد الأتراك ، ويقال إن ابنه « المنتصر » كان يعلم بسر المؤامرة التى دبرت لقتله ، والمعروف أنه لم يكن راضيا عن تصرفات أبيه الجائرة ، وفى ذات ليلة بينما كان « نيرون العرب » ثملا فاقد الحس دخل عليه المتآمرون وفتكوا به .

أبو جعفر أحمد المنتصر بالله
٢٤٧ـ٢٤٨ هـ
٨٦١ـ٨٦٢ م

ولما قتل المتوكل بويع « المنتصر بالله » ، وكان ورعا عادلا سمحاً كريما عفيفا أمينا يحرص كل الحرص على توفير أسباب السعادة والرفاهية للشعب ،

---

(١) كان ابن الزيات قاسى القلب ، ولكن أبا دؤاد كان يلطف من حدته فى عهد الواثق . ويقال إن ابن الزيات الآنف الذكر كان قد اخترع آلة لتعذيب المجرمين والمغضوب عليهم ، فأمر المتوكل بإدخاله فيها وهى تشبه الآلة التى اخترعها السير « سكيفنكتون » فى القرن الخامس عشر : « وهذه الآلة عبارة عن تنور من الحديد رؤوس مساميره إلى داخل قائمة رؤوس المسال » .

فشيد من جديد قبرى « على » و « الحسين » ، وأطلق أوقاف « آل البيت » التى كان « المتوكل » قد صادرها ؛ كما منع التعرض للذميين ، ولكنه توفى لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته غير ستة أشهر[١] . فاجتمع القواد الأتراك الذين أصبحوا وحدهم المتحكمين فى مصاير الخلافة ، وبايعوا حفيداً من أحفاد المعتصم ولقبوه « بالمستعين بالله » ؛ ولكنهم مع ذلك جردوه من النفوذ والسلطان .

أبو العباس أحمد المستعين بالله

ويقول لنا المؤرخون إن الاضطرابات التى عمت البلاد بعد موت « المنتصر » شجعت أمراء الولايات على الاستقلال بولاياتهم تدريجيا ، فأصبحوا أشبه بأصحاب الإقطاعيات منهم بالعمال الذين يأتمرون بأوامر الخليفة ؛ وهكذا تدهورت سلطة الخلافة ولم تعد تحتفظ لنفسها بغير الاسم فحسب[٢] .

الطاهريون

٢٣٢-٤٠٤هـ

توفى « عبد الله بن طاهر » فى خلافة المعتصم فرأى ابنه طاهر أن من حقه الشرعى أن يتولى منصب أبيه ، وكانت إدارته لا تقل عدلا وإنصافا عن إدارة سلفه ؛ وتقول لنا الرواية إن هذه الأسرة أسست فى « نيسابور » (حاضرة خراسان) بلاطا يضارع بلاط الملوك روعة وفخامة ، ولما توفى طاهر سنة ٨٦٢م خلفه ابنه « محمد » وظل متربعاً فى دست الحكم حتى سنة ٨٧٣م . ويعد حكم هذه الأسرة إيذانا بانفصال الإمارات عن الخلافة ، إذ أن استقلالها شجع الأمراء الآخرين على إعلان استقلالهم ، وعلى هذا أفلت المشرق تدريجيا من أيدى الخلافة العباسية .

فرار المستعين بالله إلى بغداد

كذلك حدث فى تلك الأثناء أن ضاق « المستعين » ذرعاً بالجيش التركى ففر منه إلى بغداد حيث كان يتوقع مؤازرة الجيش العربى والفارسى . وما إن يئس زعماء الأتراك من عودته حتى بايعوا « المعتز بالله » ثانى أولاد المتوكل

---

(١) كان المنتصر أول خليفة عباسى بنى ضريحاً فوق قبره .

(٢) يشبه تاريخ الأسرات الحاكمة التى قامت فى الإمبراطورية العربية فى المدة الواقعة بين وفاة الواثق وبين سنة ١٠٥٥ الأسرات القوية التى ظهرت فى فرنسا واستولت على إمارات النورمندى والبورغندى .

بالخلافة ، وراحوا يضيقون الحصار على بغداد حتى أذعن «المستعين» بالتسليم ورضى بالتنازل عن الخلافة على شرط أن يضمنوا له العيش باطمئنان فى المدينة المنورة ، غير أن أحد رجال الخليفة المعتز اغتاله فى واسط وهو فى طريقه إلى الحجاز .

جمادى الثانية ٢٦٤ هـ (حزيران ٨٦٨م)

ومنذ ذلك الحين طفق القواد الأتراك يتنازعون على السلطة والنفوذ فيما بينهم ، حتى أدى بهم التنافس إلى التآمر على قتل قائدين شهيرين طالما شاهدناهما يلعبان على مسرح الحوادث فى ذلك العهد ، وهما «وصيف» و «بغا» ، فولى الوزارة بعدهما المدعو «بايكباك» الذى استطاع أن يفوز من الخليفة بولاية مصر وينيب عنه «أحمد بن طولون»[1] المشهور ، الذى ما كاد يصله خبر مقتل سيده حتى استقل بحكمها ؛ ولقد برهن هذا الرجل على أنه إدارى حازم وجندى شجاع . وفى سنة ٨٦٨ م توفى الإمام «على النقى» وخلفه ابنه الحسن الملقب بالعسكرى[2] .

وفى سنة ٢٥٥ هـ أى بعد مرور ثلاث سنوات على خلافة «المعتز» اشتد شغب الجنود ، وألحوا عليه فى طلب مرتباتهم ، ولما أعرب لهم عن فراغ الخزينة أخرجوه عنوة من القصر ، وراحوا ينزلون به أروع ضروب الإهانات حتى اضطروه إلى التنازل عن الخلافة ، ثم اغتالوه بعد أن ألقوه مدة فى السجن ، وهكذا قدر لأحفاد «المنصور» و «الرشيد» أن ينحدروا إلى هذا المصير من الضعف والاستكانة .

أبو عبد الله محمد المهتدى بالله ٢٦ رجب ٢٥٥ هـ

ولما تنازل «المعتز» عن الخلافة بايع القواد الأتراك ابن الواثق ولقبوه «بالمهتدى بالله» ، وكان رجلا قوى الأخلاق فاضلا عادلا محباً للشعب . ولو أنه جاء فى عصر غير هذا العصر لبرهن على مقدرة ممتازة وكفاية منقطعة النظير .

---

(١) جاء فى وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٩٦ : «إن أحمد بن طولون كان قد ولى مصر ثم استولى على دمشق والشام أجمع وأنطاكية والثغور . وكان أحمد عادلا جواداً شجاعاً متواضعاً ، حسن السيرة ، صادق الفراسة يباشر الأمور بنفسه ، ويعمر البلاد ويتفقد أحوال الرعية ويحب أهل العلم . وكان له ألف دينار فى كل شهر للصدقة ، وكان مع ذلك كله طائش السيف . وكان يحفظ القرآن الكريم ورزق حسن الصوت .» (المعرب)

(٢) لقب بالعسكرى لأنه ولد وتوفى فى سامرا التى كانت تدعى العساكر .

والمعروف أنه أقصى المغنيين وأبعد الموسيقيين والقيان من القصر ؛ كما حاول إظهار نفوذه وحكم البلاد بموجب الشرع ، غير أن وطأته ثقلت على الأتراك فتألبوا عليه وثاروا فى وجهه فصمد لهم فى قوة قليلة من رجاله ، ودار بين الفريقين قتال شديد أبلى فيه الخليفة بلاء حسنا ، غير أن أعوانه تفرقوا من حوله فقبض عليه الأتراك وساموه ضروب العذاب حتى اضطروه إلى التنازل عن الخلافة وأودعوه السجن حيث توفى بعد أمد قصير .

أبو العباس أحمد المعتمد على الله ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م)

وعلى أثر ذلك بويع أكبر أبناء المتوكل بالخلافة ، وكان يعيش فى تلك الآونة فى سامرا ، ولقب « بالمعتمد على الله » وكان ضعيف الخلق ، متقلب الأهواء ، عاكفاً على الملذات ، فى حين كان أخوه « أبو أحمد » الملقب « بالموفق » رجلا حازماً ذا مقدرة عسكرية ممتازة ، وكان فى الواقع هو الحاكم الفعلى للبلاد ، وظل محافظاً على نفوذه وسلطانه حتى وافته منيته قبيل وفاة أخيه « المعتمد » بقليل . وتقول لنا الرواية العربيـة : إن القواد الأتراك خفضوا فى عهده وفى عهد خلفه قليلا من غلوائهم عند ما آنسوا من « الموفق » قوة وصلابة من جهة ، ولربما لانتقال البلاط إلى بغداد من الجهة الأخرى ، حيث أصبح الخليفة يعتمد على الروح الوطنية . ويمكننا أن نقول إن دلائل النشاط والرفاهية أخذت فى ذلك الحين تبدو على جسم الإمبراطورية برغم انفصال طبرستان سنة ٨٦٤ م ، حيث استطاع أحد أحفاد على المسمى « بالحسن بن زيد » أن ينشر الدين الإسلامى بين أهلها وينادى بنفسه حاكما عليها .

الصفارية

ولم يحل عام ٨٧٠ م حتى كان « يعقوب بن الليث الصفار » قد أسس مملكة « الصفارية » . وكان هذا المصامى قد بدأ حياته كجندى بسيط ، وظل يواتيه الحظ حتى استولى على « سجستان » واستخلصها من الأمراء الطاهرية ، ثم نشر سلطانه على بلاد فارس الحاليـة ؛ وفى سنة ٨٧٣ أقصى « محمداً » حفيد طاهر من خراسان كما اجتاح طبرستان بعد مدة قصيرة وضمها إلى إمارته . ويظهر أن

النجاح الذى ناله فى المعارك التى خاض غمارها حفزه على الاستيلاء على العراق ؛ وهنالك تقابل جيشه بجيش «الموفق» فى «واسط» ، ودارت بين الفريقين معركة رائعة دارت فيها الدائرة على «يعقوب» ، فانسحب إلى إمارته مثقلا بالهزيمة.

٨٧٩ م وفى السنة التالية بعد أن أعد عدته أراد الاستيلاء على عاصمة الخلافة ، غير أن المنية عاجلته فى «جنديسابور» ، نخلفه أخوه «عمرو بن الليث» وكان سياسيا لبقاً فاستطاع أن يكتسب رضاء «المعتمد» الذى أقره على إمارة أخيه وأرسل له العقد والعهد[1] التقليدين.

السامانيون ومما هو جدير بالذكر أن بلاد «ما وراء النهر» انفصلت عن الخلافة فى ذلك الحين ، وأفضى أمرها إلى السامانيين الذين استقلوا بها برئاسة زعيمهم «إسمعيل السامانى» ، وكان فى الأصل قائداً للقوافل يتعاطى تجارة الجمال. ويعزى ارتفاع شأن هاته الأسرة إلى «المأمون» الذى ولّى «أحمد السامانى» فرغانة فى سنة ٨١٩ م ، ثم خلفه «أحمد بن ناصر» ؛ ولما توفى سنة ٨٩٢ أفضى الأمر من بعده إلى أخيه إسمعيل وكان رجلا قوى الأخلاق ، على جانب عظيم من الكفاية الإدارية والحنكة السياسية ، حتى إنه لم يكن ليترك صغيرة ولا كبيرة من أمور الدولة إلا ويطلع عليها. كذلك استطاع أن يزيح إلى ما وراء

٨٤٧ — ١٠٦٣ م «جاكارت» قبائل التركمان التى اعتادت أن تشن الغارة من حين لآخر على ما وراء النهر ؛ كما اكتسب محبة الرعية بفضل حكمته وعدالته. وهكذا أسس دولته على دعائم قوية ، وجعل الحكم وراثيا فى أسرته كما فعل «عمرو بن الليث»

الطولونيون مقابل جزية سنوية يدفعانها للخليفة. وقد استقل «أحمد بن طولون» بملك مصر والشام وتوفى سنة ٨٨٤م نخلفه ابنه «خمارويه الذى نقل عاصمة ملكه إلى دمشق.

---

[1] جاء فى صبح الأعشى للقلقشندى : «أنه إذا كان الذى يوليه الخليفة من ملوك النواحى البعيدة عن حضرة الخليفة ، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول وهو : جبة أطلس أسود بطراز مذهب ، وطوق من ذهب يجعل فى عنقه ، وسواران من ذهب يجعلان فى يديه ، وسيف قرابه ملبس بالذهب ، وفرس بمركب من ذهب ، وعلم أسود مكتوب عليه بالبياض اسم الخليفة ينشر على رأسه.» (المعرب)

(الأسر الإمارات المستقلة)

وفى هذه المرحلة تبرز لنا حقيقة لا يمكن إغفالها ؛ وهى أن تأسيس تلك الأسر المستقلة و إن أضعفت شأن الإمبراطورية العربية قد أفادت أهل تلكم الإمارات فوائد جمة ؛ ذلك أن حكامها ناصروا الحركة الأدبية وتعهدوها ببرهم وعطفهم كما شجعوا التجارة والصناعة أيما تشجيع .

ثورة الزنوج

وفى تلك الأثناء استفحلت ثورة الزنوج التى كانت قد انتشرت فى كلدة فى عهد المعتز ، و بلغت جانباً عظيما من الخطورة بزعامة رجل فارسى أباح لأتباعه أخزى أنواع الخلاعات ، وسمى « بالخبيث صاحب الزنج » ، فتدفق عليه العبيد من كل حدب وصوب وانضووا تحت لوائه ، فلما اشتد ساعده وقوى بأسه أعلن سلطانه على كلدة والأهواز ، وظل يحرز النصر تلو النصر على جيوش الخليفة طوال عدة سنين ، غير أن « الموفق » استطاع أخيراً أن يهزمه شر هزيمة ويفتك به سنة ٨٨٢ .

وفى تلك السنة أصبحت الدولة الخلافية مكونة من جزيرة العرب والجزيرة و بابل وكلدة (العراق العربى) وعراق العجم وأذربيجان وأرمينيا والولايات المطلة على المحيط الهندى ، وتدلنا تلك الحدود على أن الإمبراطورية العربيــة كانت لا تزال مترامية الأطراف جديرة بالازدهار والتوسع . بيد أن الدولة البيزنطية

(٢٣٢ — ٤٥٤ هـ)

انتهزت فرصة نشوب هاته الفتن الداخلية وأخذت تغير على البلاد الإسلاميــة حتى كادت تكتسح فى بادئ الأمر كل ما تصادفه أمامها ؛ غير أن أحمد بن طولون حينما استولى على الشام هب لقتالهم كما اشتبك عامله معهم فى «طورسوس» فى عدة معارك هزمهم فيها شر هزيمة وأجلاهم إلى ما وراء الحدود .

آخر أئمة الشيعة الاثنى عشرية سنة ٨٧٤م

وفى سنة ٢٦٠ هـ توفى الإمام « حسن العسكرى » فى عهــد « المعتمد » وانتقلت الإمامة بوفاته إلى ابنه محمد الملقب « بالمهدى » آخر أئمة الشيعة . ومما لا شك فيه أن قصة هؤلاء الأئمة من « آل البيت » تثير الشجون وتحرك

العواطف ، ومن أمثلة تلك المآسى أن « أبا الحسن »[١] كان قد نفى بأمر « المتوكل » من المدينة إلى سامرا حيث وافته منيته وظل ابنه الحسن سجيناً . ويقال إن الباعث الحقيقى على سجنه هو الحسد الذى كان يضطرم فى قلوب أخلاف المتوكل ، وكان ابنه الطفل[٢] الذى لم يكن قد ناهز بعد سن الخامسة يذوب حزناً وأسى على فراق أبيه ، فدخل الطفل ذات يوم سرداباً يبحث عنه ، ولكنه لم يعد ثانية ، فاستحالت شجون تلك المصيبة إلى أمل الانتظار ، وأخذ أتباع « الحسن » يعللون النفس بعودة الطفل كى ينقذ العالم الملىء بالشرور والآثام ويطهره من أدران الخطيئة والظلم . ويقول ابن خلدون فى مقدمته التى وضعها فى القرن الرابع عشر ما يلى : « وهم الآن ينتظرونه ويسمونه المنتظر لذلك ، ويقفون فى كل ليلة بعد صلاة المغرب بباب هذا السرداب فيهتفون باسمه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ، ثم ينفضون ويرجئون الأمر إلى الليلة الآتية ؛ وهم على ذلك لهذا العهد ؛ وبعض هؤلاء « الواقفية » يقول إن الإمام الذى فات يرجع إلى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بقتيل بنى إسرائيل ومثل ذلك من الخوارق التى وقعت على طريق المعجزة » .

٨٤٧ — ١٠٦٣م ولما توفى الموفق سنة ٢٧٨ هـ بويع من بعده أخوه ثم خلفه ابن أخيه « أحمد

أبو العباس أحمد المعتضد بالله (٨٩٤م)

ابن الموفق » ولقب « بالمعتضد بالله » ، وفى خلال تلك المدة لم يطرأ أى انفصال على جسم الدولة ؛ بل تضافرت جميع الفرص على تقوية نفوذ هذين الخليفتين فاستردا عدة ولايات كانت قد انفصلت عن الدولة الخلافيــة من قبل . ولقب

صفات المعتضد بالله

المعتضد « بالسفاح الثانى » إذ من المعتقد أنه أعاد إلى البيت العباسى — الذى كان قد تتطرق إليه الوهن والضعف — هيبته السابقة . ويصفه المؤرخون : بأنه كان شجاعاً نشيطاً وإدارياً حازماً وجندياً ممتازاً ؛ ولكنه كان بجانب ذلك

---

(١) على الهادى . (المعرب)
(٢) محمد العسكرى .

قليل الرحمة كسلفه «السفاح الأول» ، فنشط لقمع الاضطرابات حتى أرهب الناس واستطاع كبح جماحهم وأطفأ نار الفتن ، وكان فوق ذلك موفقاً فى حروبه مع الدولة البيزنطية ، إذ تمكن من استرداد عدة مدن بالسلاح والاستيلاء على عدد آخر دون مقاومة ؛ وقمع بشدة ثورة الأمير حمدان أمير الموصل الذى حاول الاستقلال بالحكم ، كما أجلى الأكراد عن أرض الجزيرة ؛ غير أن أعظم عمل اشتهر به هو استرداد مصر سلمياً وضمها إلى الخلافة ، وذلك أن خمارويه بن أحمد بن طولون كان قد عرض على الخليفة من تلقاء نفسه جزية سنوية قدرها ٤٥٠ ألف دينار إن هو أقره على إمارة مصر وجعلها وراثية فى أسرته ، ولا شك أن العلاقة بين مصر ودار الخلافة قد توثقت روابطها بزواج المعتضد بالله من ابنة خمارويه «قطر الندى» . وكان المعتضد رجلا حازما صارما . ويقال إنه أدخل عدة إصلاحات عظيمة الشأن منها أنه أقصى من العاصمة جميع القتلة واللصوص الذين كانوا يجلسون على قارعة الطريق فى رابعة النهار يقصون القصص ويتنبأون بالمستقبل والحظ ، ولكنهم كانوا متى أرخى الليل سدوله يسطون على الدور والحوانيت . أما الإصلاح الذى أكسبه محبة الشعب فهو القانون الخاص بالمواريث ، إذ كان من عادة العرب فى زمن الجاهلية أن يحرموا ذوى الأرحام من الميراث ، وقد أخذ أهل السنة بهذه القاعدة ، حتى جاء «المعتضد» فأمر بالغائها هى وديوان الميراث وإعادة البقية من أسهم المواريث إلى مستحقيها .

استرداد مصر

(٢٨٢م)

وكان المسلمون وقتئذ يحتفلون بعيد رأس السنة الشمسية جرياً على عادة الفرس القدماء ؛ وكان الخليفة يستقبل فى ذلك العيد المسمى بالنيروز [١]

عيد رأس السنة

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندى ج ٢ ص ٤١٠ و٤١١ : « إن أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان فى الإسلام هو الحجاج بن يوسف الثقفى ، ثم رفع ذلك « عمر بن عبد العزيز » واستمر المنع فيه إلى أن فتح الهدية فيه « أحمد بن يوسف الكاتب » فإنه أهدى فيه للمأمون سفط ذهب فيه قطعة عود هندى وكتب معه : هذا يوم جرت فيه العادة بإتحاف العبيد السادة . » (المعرب)

الأشراف ويقبل منهم الهدايا ، كما كان الشعب يتبادل الزيارات ، ويتهادى بالحلوى وسلال البيض الملون بالأصباغ ، ويضيء المشاعل فى الليل ، ويرش الأمواه الملونة أو المعطرة . ولما كانت تلك العادة تؤدى فى معظم الأحيان إلى أسوأ النتائج فضلا عن الأخطار الناجمة عن إشمال النيران ، فقد أبطل « المعتضد بالله » هاتين العادتين ؛ كما منع بيع الكتب الفلسفية فى الأسواق ، واستبدل رأس السنة من شهر آزار إلى حزيران ولهذا سمى « بالنيروز المعتضدى » .

القرامطة ٢٧٨هـ (٨٩١ — ٨٩٢م) وفى تلك الأثناء تأسست الدولة الفاطمية فى أفريقيا وظهر القرامطة الاشتراكيون الذين غشوا جزيرة العرب وسوريا والعراق ونشروا فيها الرعب وجلبوا على الأمة الإسلامية الكوارث والخراب ؛ وكان أول ظهورهم فى سواد الكوفة ثم انتشروا فى البحرين معقل أصحاب المبادئ الثورية والآراء الهدامة فى العالم الإسلامى ؛ وهناك بزعامة « أبى سعيد الجنابى » قوى أمرهم واستطاعوا سنة ٢٨٧ هـ غزو كلدة ، فأرسل إليهم المعتضد جيشاً قوياً هزمهم شر هزيمة . وبعد هذه المعركة بسنتين بلغوا الشأم وأعملوا فيها معاول النهب والتخريب .

أبو سعيد الجنابى سنة ٩٠٠م

٩٠٣—٩٠٤م وفى سنة ٣٠١ هـ اغتيل أبو سعيد فولى الزعامة من بعده ابنه «أبو طاهر» الذى استولى على البصرة وعمل فى البلاد التى فتحها السلاح والنار، وظل هو وأتباعه يرتكبون أروع ضروب الفتك ويلحقون بجيش الخليفة الهزائم المتوالية ، حتى بلغت بهم الجرأة إلى الانقضاض فجأة سنة ٣١٧ هـ (فى حكم المقتدر) على مكة فى يوم[١] من أهم أيام الحج دون أن يرعوا حرمة البيت الحرام ، وقتلوا الحجيج وقلعوا الحجر الأسود وحملوه معهم ، وظلوا يعيثون فى البلاد نهبا وقتلا ويرتكبون أقصى ضروب الجور والتعسف ، حتى هب المسلمون ووحدوا صفوفهم للقضاء على أعداء الإنسانية واستئصال شأفتهم ؛ فنشبت حروب دموية هائلة بين الفريقين استعملت فيها أروع ضروب القسوة ، واستمرت خمس عشرة سنة حتى انتهى

---

(١) يوم التروية . (المعرب)

٢٣٢ـ٤٥٤هـ

الأمر بالقضاء على هذه الفئة الباغية ؛ غير أن نتائج هذه الحروب لم تنطمس معالمها قط ، إذ استحالت جزيرة العرب وقسم من بلاد الشام وكلدة إلى أرض بلقع .

ويقال إنه ما كادت شوكة الخليفة تقوى وتشتد حتى أضعفتها هذه الفتن ، وفتت فى عضدها فاجترأت الدولة البيزنطية — عدوة الإمبراطورية العربيـة — على غزو الحدود خلال تلك الفوضى وهى آمنة مطمئنة .

مبايعة أبى محمد على المكتفى بالله ٢٢ ربيع الثانى ٢٩٩ هـ . ٥ نيسان ٩٠٢م

وفى سنة ٢٩٩ هـ توفى «المعتضد بالله» وبويع من بعده بالخلافة ابنه أبو محمد « على » ولقب « بالمـكتفى بالله » . وقد برهن على أنه حاكم عادل كريم الخلق سديد الرأى ، وكان فى « الرقة » وقت أن توفى أبوه فأخذ له « الوزير القاسم بن عبيد الله البيعة ، وفى الحال عاد «المـكتفى» إلى بغداد على ظهر سفينة أقلعت به وسط تهليل الشعب وهتافه ، وقد أمر حين وصوله إلى العاصمة بهدم السجون الأرضية التى شيدت فى عهد أبيه ثم بنى مكانها مساجد ، كما رد الأرض والبساتين التى كان سلفه قد اغتصبها ليشيد عليها قصره ؛ وبهذه الأعمال الجيدة وبأمثالها اكتسب « المـكتفى » محبة الناس الذين ملأ أبوه قلوبهم رعباً وخوفاً .

٨٤٧ — ١٠٦٣ م

وبالرغم من المصائب والويلات التى أنزلها القرامطة بالعراق والحجاز وجنوبى الشام فقد استطاع « المـكتفى » أن يضم مصر إلى الخلافة ويضعها تحت سلطانه المباشر ، ويصد جيوش الروم بعد أن ألحق بهم أفدح الخسائر ، كما استولى عنوة على أنطاكية إحدى المدن الخطيرة ؛ ولـكنه توفى لسوء الطالع بعد حكم لم تطل مدته أكثر من خمس سنوات . فأفضى الأمر من بعده إلى أخيه جعفر وكان إذ

المقتدر بالله ١٢ ذو القعدة ٢٩٥ هـ ١٣ آب ٩٠٧

ذاك لم يتجاوز الثالثة عشرة ولقب « بالمقتدر بالله » ، وقد بقى فى كرسى الخلافة ٢٥ سنة ، ويعزى الاحتفاظ بهيبة الخلافة إبان عهـده إلى مقدرة وزرائه[1] وكفايتهم ، ولـكن الدولة لم تلبث أن تقلصت أطرافها بسبب طيشه وغروره .

وفى تلك الأثناء استولى الخليفة الفاطمى « عبيد الله المهدى » على أفريقيا

---

(١) أمثال ابن الفرات وغيره .

obeikandl.com

وطرد منها آخر الأغالبة المدعو زيادة الله بن الأغاب الذى رحل إلى مصر ومنها إلى العراق ؛ وكان الديلم الذين يسكنون أقاصى شمالى ميديا القـديمة قد اعتنقوا الإسلام بفضل أحد العلويين المسمى الحسن أو « الأطروش » الذى اسـتولى ٣٠٥هـ على طبرستان وكيلان وانتزعهما من « السامانيين » . وفى عام ٣٠٥ هجرية وصل وفد[١] من إمبراطور الروم فاستقبل استقبالا رائعاً . ومن مآثر « المقتدر » أنه شيد المستشفى المسمى بالمقتدرية ورتب له سبعة آلاف دينار سنويا . وفى أواخر عهده كانت أمور الدولة قد صارت إلى أيدى أمه المشهورة بحسن خصالها وواسع حيلتها ، وكانت تصدر المراسيم والأوامر باسمها وتجلس فى أيام الجمعة للمظالم يحيط بها رهط من القضاة والأعيان . ويقال إن أصحاب المذهب الحنبلى عظم نفوذهم وعلت كلمتهم فى تلك الأيام ، فأدى تعصبهم إلى نشوب اضطرابات عديدة فى بغداد[٢] وكانوا قد أحسوا بضعف الحكومة ووهنها ، فنصبوا أنفسهم مراقبين ٢٣٢ — ٤٥٤هـ على الشعب وشرعوا يعتـدون على حرمة المنازل ، وكثيراً ما كانوا يستدلون على الـكتب التى لم تكن توافق أهواءهم ؛ وكان مقتهم الخاص موجهاً إلى الـكتب الفلسفية والعلمية التى كانوا ينتزعونها من المكاتب ويحرقونها علانية .

٣١ تشرين الأول ٩٣٢م وفى عام ٣٢٠ قتل المقتـدر فى أثناء المعركة التى دارت بين جنوده وأحد الأشراف الثائرين . فبويع بعده ابن المعتز المسمى بأبى منصور محمد ولقب « بالقاهر أبو منصور محمد القاهر بالله بالله » وكان قاسياً فاسد الأخلاق سيئ النية ، حتى إن الذين أجاسوه على العرش

٦ جمادى الأولى ٣٢٢هـ نيسان ٩٣٤م

(١) جاء فى صبح الأعشى للقلقشندى : « إنه لما وصلت رسل ملك الروم إلى بغداد فى سنة خمس وثلثمائة فى خلافة المقتدر رتب من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفاً ، مابين راكب وراجل ، ووقف بين يدى الخليفة سبعمائة حاجب وسبعة آلاف خادم خصى : أربعة آلاف بيض وثلاثة آلاف سود ، ووقف الغلمان الحجرية الذين هم بمثابة مماليك الطباق الآن بالباب بتمام الزينـة والمناطق المحلاة ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة وغرائب الزينة ، وغشيت جدرانها بالستور ، وفرشت أرضها بالبسط . » (المعرب)

(٢) وقد بلغ من تعصبهم أن حالوا دون دفن الطبرى المؤرخ المشهور لأنه لم يشد بذكر أحمد بن حنبل فى تاريخه ، وقد تدخل أصدقاؤه ودفنوه سرا .

سخطوا عليه وسملوا عينيه ثم خلعوه ، وفى خلافتـه استقل « محمد الأخشيد التركى »[١] بمصر .

أبو العباس محمد الراضى بالله

وعندئذ بايع القواد الأتراك « أبا العباس محمد » بن « المعتز » ولقب بالراضى بالله ؛ و بمبايعته اضمحلت عظمة الخلافة وفخامتها وأفل نجمها وقضى على نفوذها الذى كانت تتمتع به إلى ذلك الحين ، إذ لم يمض طويل وقت على مبايعته حتى استولى محمد بن رائق عامل واسط والبصرة على السلطة العليا ، فلقبه الراضى الذى لم يكن له حول ولا طول بلقب « أمير الأمراء » ، ولم يعـد للخليفة سلطان إلا على بغداد وضواحيها ، وذلك أن الأمراء استقلوا بإماراتهم . ومع أن ملوك الأندلس الأمويين لم يكونوا قد اتخذوا لأنفسهم بعـد سمة الخلافة إلا أن تدهور السلطة العباسية وانهيار مجدها حدا بعبد الرحمن الثالث إلى أن يتلقب بالخلافة ؛ وعند ما اشتدت شوكة « بجكم » القائد التركى عزل محمد بن رائق واستأثر بلقب إمارة الأمراء .

٨٤٧ — ١٠٦٣م

أبو إسحق إبراهيم المتقى بالله ٣٢٩هـ ٩٤٠م

وفى سنة ٣٢٩ توفى الراضى بالله فخلفه أبو إسحق ابراهيم بن المعتمد ولقب « بالمتقى بالله » ،ولم يكن فى الواقع إلا أداة صماء فى يد سكرتيره « بجكم » الذى اغتيل بعد مدة قصيرة فولى الحـكم من بعده تركى[٢] آخر ، غير أن ابن رائق هزمه ، وعندئذ خلع «المتقى» عليه الخلع التقليدية ولقبه «بأمير الأمراء» ، ولـكن سرعان ما استولى زعيم تركى ثالث اسمه (البريدى) على بغـداد ففر ابن رائق يصحبه الخليفة إلى الموصل ، حيث كان حفيـدا الأمير حمدان أميرا الموصل وتكريت يصدان غارات الروم بقدر ما تسمح به مواردهما الخاصة ، فاغتالا ابن رائق لـكى يخلو لهما الجو ، وما هى إلا برهة حتى لقبهما الخليفـة بناصر الدولة ، وسيف الدولة ، وعاد معهما إلى بغداد حيث أجلساه على عرشه ثانية . ولـكن

(١) مؤسس الدولة الأخشيديه .
(٢) كورتكين الديلمى . (المعرب)

لم يمض سوى قليل حتى نشبت فتنة أخرى على رأسها « توزون » التركى ، انتهت بطرد الأخوين من بغـداد ووقوع الخليفة فى قبضة القائد الثائر ؛ ويظهر أن « المتقى » كان قد أوجس خيفة منه ففر إلى الرقة ، غير أن توزون أقنعه بالعودة ووعده بألا يغدر به ، ولـكنه لم يلبث بعد أن اطمأن إليه الخليفة وعاد معه إلى بغداد أن حنث فى وعده معه وسمل عينيه وخلعه من الخلافة . ويقال إن فى عهده

٣٣٢ـ٤٤٥هـ غزا الروم بلاد المسلمين وأعملوا السيف فى رقاب السكان فلم تسلم مدينة (الرها) إلا بتسليم مسوحة المسيح المشهورة التى كانت محفوظة فى كنيسة تلك المدينة .

أبو القاسم عبد الله المستكفى بالله صفر ٣٣٣ هـ تشرين الأول ٩٤٤م آل بويه

وبعد ما خلع المتقى جىء بأخيه أبى القاسم عبد الله فبايعه « توزون » وسائر القواد ولقب « بالمستكفى بالله » . ولـكن توزون مات بعد ذلك بقليل ، فقلد الخليفة منصب إمارة الأمراء إلى سكرتيره « ابن شيرزاد » . وفى ذلك الحين زحف أمراء الديلم أبناء بويه على العراق للاستيلاء على بغداد ، ولأجل أن ينال المستكفى تعضيدهم ويتقى شرهم لقب أحمد « بمعز الدولة » ، وعليا « بعماد الدولة » والحسن « بركن الدولة » . وتقول لنا الرواية إن معز الدولة [1] لم يلبث أن استولى على بغداد واضطر الخليفـة إلى أن يقلده السلطنة كما نقش اسمه على العملة وذكر اسمه مقروناً باسمه فى خطبة الجمعة ؛ وكان موقفه من الخليفة كموقف تشارل مارتيل من ملوك فرنسا ، إذ كان هو الحاكم الحقيقى فى حين كان الخليفة لا حول له ولا قوة ، مجرداً من كل سلطة ، وليس له من الشؤون غير قبض المخصصات اليومية وقدرها خمسة آلاف دينار من خزينـة الدولة . وكان « معز الدولة » محبا للعلوم والفنون مكرما للعلماء ، إلا أنه كان قاسى القلب ،

٣٤١هـ ٩٥٢م متشيعاً ، وهو الذى جعل اليوم العاشر من محرم يوم حزن لذكرى موقعة كربلاء

(١) ذكر أبو الفرج بن الجوزى فى كتاب شـذور العقود : إن معز الدولة المذكور كان فى أول أمره يحمل الحطب على رأسه ، ثم ملك هو وإخوته البلاد وآل أمرهم إلى ما آل ، ولما حضره الموت أعتق مماليكه وتصدق بأكثر ماله ورد كثيراً من المظالم . (المعرب)

وفى عهده شرعت جيوش الروم تغير على البلاد الإسلامية عندما آنست من الخلافة عجزاً وخوراً .

ويقال إن « معز الدولة » أوجس خيفة من « المستكفى » واتهمه بالتآمر عليه فخلعه وسمل عينيه فى كانون الثانى سنة ٩٤٦ ، ثم بايع أبا القاسم الفضل بن المقتدر الملقب « بالمطيع لله » . وظل البويهيون فى الحكم زهاء قرن دون أن يظهر لهم أى منافس ينازعهم النفوذ والسلطان ، فقويت بذلك شوكتهم وتغلبوا على العناصر العسكرية التركية ، كما أجلوا الحمدانيين عن ملكهم فى الموصل حتى أصبحت بلاد الجزيرة والعراق العربى وغربى فارس تدين لهم بالطاعة . ومع أن بعض أفراد هذه الأسرة كان قاسى القلب ، شديد الوطأة ، إلا أن العلوم والآداب زهت فى عهدهم وسعد الأهالى فى كنفهم .

أبو القاسم الفضل المطيع لله ٣٢٤هـ ٩٤٦م — ٨٤٧ ١٠٦٣م

وفى عام ٣٥٦ هـ توفى « معز الدولة » وخلفه فى منصب إمارة الأمراء ولده « بختيار » الملقب « بعز الدولة » . وبعد سبع سنين أصيب الخليفة المطيع بالشلل فتنازل لابنه أبى بكر عبد الكريم عن الخلافة ، ولقب « بالطائع لله » .

أبو بكر عبد الكريم الطائع لله ١٣ ذو القعدة ٣٦٣هـ (٥ آب ٩٧٤م)

وليس أدل على كرم الأمراء الحمدانيين والبويهيين واهتمامهم بالعلوم والآداب من تألق نجم طائفة من مشاهير الرجال فى أيامهم أمثال المسعودى المؤرخ المعروف والفيلسوف « أبى نصر الفارابى » ، والشاعر الفذ « أبى الطيب المتنبى » ، و « أبى الفرج الأصبهانى » صاحب كتاب الأغانى ، و « أبى القاسم التنوخى » ، و « الدينورى » ، وكثير من الفلاسفة والعلماء والشعراء والقضاة الذين ذاعت شهرتهم خلال عهد الطائع لله .

وقد حدث فى خلافة « الطائع » أن استولى الخليفة الفاطمى الملقب « بالمعز لدين الله » على الشام والحجاز ، وجعل الخطبة تقرأ باسمه فى الحرمين . ولما خلع عضد الدولة ابن أخيه عز الدولة أقره الخليفة فى مكان أخيه ومنحه لقباً دينياً فوق لقبه الزمنى وسماه «تاج الملّة» . وفى سنة ٣٧٢ هـ توفى عضد الدولة وخلفه ابنه

٣٦٣هـ ٩٧٤

٢٣٢ـ٤٥٤

obeikandi.com

٣٧٢هـ ٩٨٢م « صمصام الدولة » الذى لقب « بشمس الملّة » ، غير أن أخاه شرف الدولة عزله
٣٧٦هـ ٩٨٥م وتولى الحكم مكانه قرابة أربع سنوات[1] . ولما توفى عام ٣٧٩ هـ خلفه ابنه
٣٧٩هـ ٩٨٩م أبو ناصر الملقب « ببهاء الدولة » و « ضياء الملة » . وقد شجع كل من عز الدولة وشرف الدولة الروح الأدبية فى البلاد ، وطفقا يعضدان مدرسة بغداد التى كان قد اضمحل شأنها فى أثناء تدهور الخلافة ؛ وكان من جملة العلماء الذين نالوا التشجيع منهما ابن سلام ، وعبد الرحمن الصوفى ، وأبو الوفاء الفلكى المشهور . كذلك يقال إن عز الدولة علاوة على تكريمه الشعراء والعلماء قام بأعمال باهرة أفادت البلاد فائدة تذكر ، وذلك أنه أمر المهندسين الأكفاء بكرى جدوال نهر (باندمير[2]) وتهيئته للملاحة حتى مدينة شيراز ، فأزال بذلك خطر الفيضان الدورى الذى كان يغمر المناطق المجاورة ، كما شيد أيضاً مستشفى فخما وفتح عدة كليات فى بغداد .

أبو العباس أحمد القادر بالله ١٩ شعبان ٣٨١ هـ ١ تشرين الثانى ٩٩١ م

أكره « بهاء الدولة » الخليفة « الطائع لله » على التنازل لأخيه « أبى العباس أحمد » الذى بعد أن بويع بالخلافة ولقب « بالقادر بالله » سمح لأخيه بالسكنى فى قصره ، ويلوح أنه عامله معاملة مرضية ، لم تكن مألوفة فى ذلك العصر. وقد توفى (الطائع لله) عام ٣٩٣ هـ (١٠٠٢ م)؛ وكان حسب ما يصفه المؤرخون فاضلا ورعا ، سديد الرأى ، يقضى معظم ساعات الليل فى التهجد والصلاة ،
٨٤٧ — ١٠٦٣م ويصرف معظم رواتبه على أعمال البر والإحسان ، ولكننا لا نستطيع برغم ذلك أن نتجاهل شدة تعصبه وضيق أفق تفكيره ؛ ولعل ظروف عصره هى التى دفعته إلى اتخاذ خطة رجعية شديدة إزاء كل حركة إصلاحية . وقد كان الفاطميون فى تلك الأثناء ينشرون سلطانهم على كل الجهات ، فاستولى العزيز خليفة المعز على حمص وحماة وحلب ، واعترف أهل الجزيرة بسلطانهم ودانوا لهم بالطاعة والولاء وفضلا عن ذلك كان مبدأ الاعتزال ينتشر بسرعة ويجد له الكثير من الأنصار

---

(١) أقنع شرف الدولة الخليفة بمنحه لقب شاهنشاه (ملك الملوك) .
(٢) بالقرب من شيراز .

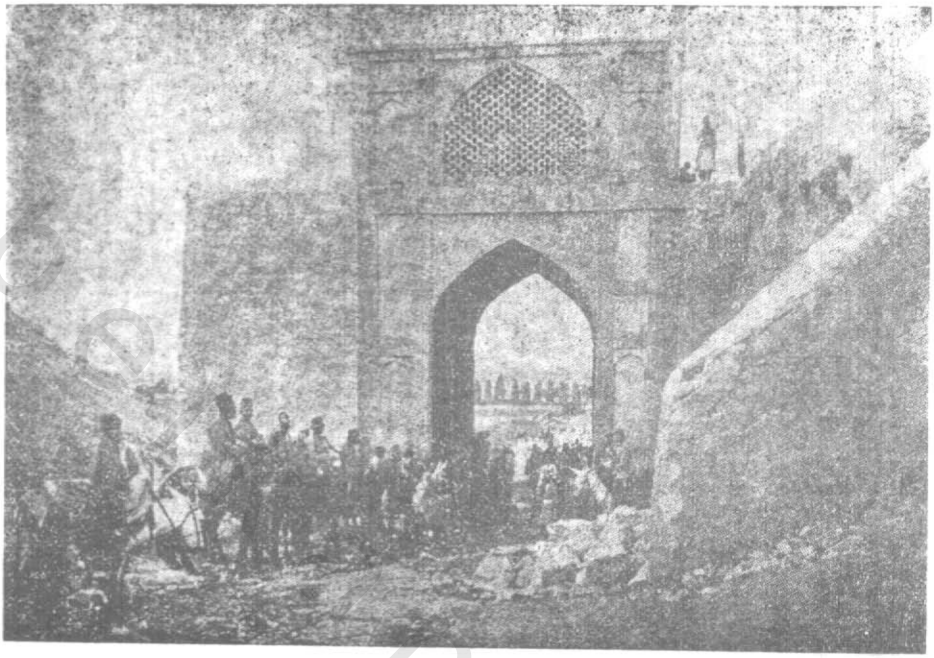

فى طريق شيراز

والأتباع . ولما كان القادر مثقفاً فى الشرع ملماً بأصول الدين ، مجرداً عن السلطة الزمنية والجاه والنفوذ ، فقد انصرف بكليته إلى تدعيم سلطان الخلافة العباسية ورفع سمعتها ، فكان الفقهاء يعقدون الاجتماعات برئاسته بصفة كونه الزعيم الدينى ويصدرون فتاويهم بتكفير الفاطميين ولعنهم وذم حرية الفكر وتحريمها ، كذلك وضع بعض التصانيف يهاجم فيها آراء المعتزلة ويكفر من يعتنقها ، فنجم عن هذه الفتاوى خلق روح البغضاء والعداء بين الطوائف وصبغ المعتقدات بصبغة الجمود .

الغزنيون ٩٩٩ وفى سنة ٨٧٤ أفل نجم الدولة السامانيـة التى حكمت بلاد ما وراء النهر وخراسان واشتهرت بحسن سياستها ، وحلت محلها أسرة أخرى بقيت فى الحكم حتى سنة ٩٩٩ م . ومؤسس هـذه الأسرة جندى تركى يدعى (البتكين) ، بدأ حياته العسكرية كأحد الغلمان فلم يلبث أن نال مركزاً سامياً عند مولاه ؛ غير أنه
٢٣٢–٤٥٤ لسبب ما جلب سخط سيده عليه ففر إلى بخارى ونزل فى إحدى المناطق الجبلية

فى أفغانستان ، وهنالك اتخذ (غزنة) مركزاً لحركته واعتصم بها ست عشرة سنة تحدى فيها سائر التدابير التى بذلت لإخضاعه ؛ و بموته سنة ٩٩٥ م أفضى الأمر إلى صهره « سبكتكين » الذى استطاع بحسن سياسته و بعد همتـه اكتساب محبة الشعب واحترام أمراء الولايات المجاورة ؛ ولم يلبث الخليفـة أن اعترف بحكومته ، فاصطبغ حكمه — بهذا الاعتراف — بالصبغة الشرعيـة وتحققت أمنية طالما اعتلجت فى صدره ، فتلقب « بناصر الدولة » ، و بعث له الخليفة بالعقد والخلع التقليدية ، وأصبح « سبكتكين » مؤسس الدولة الغزنية الشرعية . وفى تلك الأثناء حشد حملة عظيمة وزحف بها على الهنـد حتى وصل إلى كوش ثم البنجاب واستولى على مدينتى بوست وقصدار ، كذلك كانت قبائل التركمان قد اجتاحت بلاد ما وراء النهر ، فسار « سبكتكين » إلى نجدة حليفه « نوح السامانى » .

ولما توفى سبكتكين نشب خلاف بين ولديه محمود و إسمعيل حول من يتولى الحكم من بعده ، وكان الأول يرغب فى اقتسام البلاد مع أخيه الذى أبى إلا أن يحكمها بمفرده ، فنشب قتال بين الأخوين انتصر فيه «محمود» ولـكنه برغم ذلك عامل أخاه إسمعيل معاملة مرضية ، وعندئذ انفرط عقد الدولة السامانية . وفى عام ألف استولى ملك غزنة على خراسان ، ولم يلبث الخليفة أن أرسل له العقد والخلع ولقبه « يمين الدولة » و «أمين الملّة » . وكان عهد السلطان محمود من ألمع العهود فى آسيا ، فقد جمل غزنة و يحق له أن يقول كما قال الإمبراطور الأول فى روما : « إنى وجدت عاصمة ملـكى مجموعة مبعثرة من الأكواخ الحقيرة إلا أنى تركتها مدينة عامرة مزينة بالقصور المنيفة الذرى » . وكان له شغف خاص بنشر العلوم والفنون ؛ و بالرغم مما كان يعوق سخاءه أحياناً من ضيق أفق الفكر والشح ، فقد كان بلاطه ملجأ يؤمه العلماء والأدباء ، وفى عهده تألق نجم طائفة كبيرة من الفلاسفة

السلطان محمود

٨٤٧ — ١٠٦٣ م والشعراء أمثال البيرونى والفردوسى والدقيقى ، كما غزا بلاد الهند عدة مرات ، ولكنه لم يمكث طويلا فيما وراء حدود البنجاب . وفيما كان محمود منصرفا إلى بسط سلطانه فى جهة الشرق عبرت قوة كبيرة من التركمان نهر سيحون آتية من الحركيز ، فنزلت فى بلاد ما وراء النهر ؛ ولكن سلطان الدولة الغزنية أخطأ خطأ فاحشاً بترك تلك القبائل تسكن فى بلاده ، مقتنعاً منها بالجزية السنوية والاعتراف له بالطاعة ، ولكنه لكى يضعف شوكتها — حسب اعتقاده — أقصى طائفة منها مع زعيمهم « سلجوق » إلى خراسان حيث ازدادوا قوة ومنعة

السلطان مسعود

وتمكنوا فيما بعد من الخروج على أسيادهم السابقين . وفى عام ١٠٣٠ توفى السلطان محمود تاركا وراءه إمبراطورية واسعة الأطراف إلى ابنه « مسعود » الذى حاول إقصاء تلك القبيلة التى استوطنت فى قلب مملكته من جراء السياسة الخاطئة التى سلكها أبوه ، فوقعت معركة حامية بين الفريقين بمقربة من «هراة»

الدولة السلجوقية

دارت فيها الدائرة على مسعود ، فانهارت دولته ، وتأسست على أنقاضها الدولة السلجوقية ؛ وعندئذ اقتصر نفوذ السلطان مسعود على الأفغان وشرقى البنجاب وقد اعتلى العرش بالتعاقب بعد وفاته عدة أمراء لم يمكث أحد منهم فى الحكم غير مدة قصيرة ، وظلت شؤون هاته الإمارة تضطرب أحياناً وتهدأ أخرى ، حتى

٢٣٢ — ٤٥٤ هـ استخلصها منهم السلطان إبراهيم صديق الشاعر الفيلسوف الحكيم « سنائى » ، وعقد الصلح مع أمير خراسان السلجوقى ، ثم صرف جهوده إلى تدعيم سلطانه فى الهند .

طغرلبك

وعلى أثر هزيمة السلطان « مسعود » انتخب السلاجقة « طغرلبك » حفيد زعيمهم المشهور الذى عرفت القبيلة باسمه ، وكان ملكا حكيما ، متسامحاً كريماً ، فاضلا محبا للعلم ، فلم تلبث أن أذعنت له جرجان والعراق العجمى وخوارزم ، وبعض الولايات الأخرى المهمة فى المغرب ، وتمكن فى الوقت نفسه من إقصاء

أمراء بنى بويه عن ملكهم فى شمالى فارس . ومن مآثره أنه كان كلما استولى على مدينة شيد فيها مسجداً ومدرسة تخليداً لذكرى انتصاراته الباهرة ، فشاع اسمه وذاع فضله ، حتى كانت تسبقه شهرته أنى ارتحل مما سهل له الفوز والانتصار على أعدائه . وفيما كان يبسط سلطانه على دولة آل بويه فى فارس

١١ ذو الحجة ٤٢٢ هـ
٢٩ تشرين الثانى ١٠٣١ م

كان الخليفة الكهل « القادر بالله » يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وتوفى عام ٤٢٢ هـ وله من العمر ٨٧ سنة بعد أن مكث فى الخلافة ٤١ سنة . وقد تألق فى عهده أنجم عدة من العلماء الأفذاذ الذين تركوا آثاراً خالدة فى التاريخ الإسلامى أمثال القاضى عبد الجبار العالم المعتزلى ، وخصمه « أبى إسحق الأشعرى » ، والعلامة « الشيخ المفيد » أكبر مجتهدى الشيعة ، والشاعر « أبى عمر بن الدراج » ، والقاضى « ابن شاهين » وكثير غيرهم .

أبو جعفر عبدالله القائم بأمر الله

وقد بويع من بعده ابنه « أبو جعفر عبد الله » الملقب بالقائم بأمر الله ، وكان فاضلا تقيا ورعا عالما متديناً كريماً ، يشجع العلم ويكرم العلماء ، وكانت له مهارة فى فن الكتابة وشغف عظيم بعمل الخير وإقامة العدل ، ويظهر أنه بقى ٢٤ سنة فى الخلافة التى انحل أمرها ، وضعف شأنها فى عهد آل بويه . وفى عام ٤٦٦ هـ وفد القائد التركى « أرسلان البساسيرى » على بغداد وأزاح الملك الرحيم البويهى عن ملكه ، واستولى بنفسه على السلطة العليا ، وفى تلك الأثناء استنجد

السلطان طغرلبك

« القائم » بالملك السلجوقى الذى ما كاد يصل إلى بغداد حتى فر البساسيرى إلى الموصل . وتقول لنا الرواية إن البساسيرى عند ما سمع أن طغرلبك قد غادر بغداد لقمع الثورة التى نشبت فى فارس عاد إلى العاصمة وخلع الخليفة العباسى ، وبايع الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، وأرسل البردة والقضيب والمنبر إلى مصر ، وخطب له على منابر بغداد ، فلم يلبث طغرلبك أن عاد إلى بغداد وقاتل البساسيرى حتى فتك به ، وأجلس « القائم بأمر الله » ثانية على عرش أجداده ، وعندئذ أقام

الخليفة حفلة رائعة فى بغداد توج فيها طغرلبك[١] بتاجين يرمزان إلى السلطة على العرب والعجم ، وخلع عليه سبع حلل رمزاً للممالك الإسلامية السبع ، ثم اعترف الأمراء له بالسلطة على المشرق والمغرب ، ولم يبق للخلافة العباسية فى أيامه غير السلطة الروحية فحسب .

(١) يقول ابن الأثير : « إن السلطان طغرلبك بن ميكائيل السلجوقى لما تقلد السلطنة عن « القائم بأمر الله » فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة جلس له الخليفة على كرسى ارتفاعه عن الأرض نحو سبعة أذرعة وعليه البردة ، ودخل طغرلبك فى جماعة ، وأعيان بغداد حاضرون ، فقبل طغرلبك الأرض ويد الخليفة ثم جلس على كرسى نصب له وخلع عليه سبع جبات سود بزيق واحد وعمامة سوداء ، وطوق بطوق من ذهب ، وسور بسوارين من ذهب ، وأعطى سيفاً بغلاف من ذهب » . (المعرب)

obeikandl.com